القرآن الكريم معجزة الوجود الكبرى

الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على رسوله الكريم وآله الميامين وأصحابهم المنتجبين

تحدثنا في غير بحث مضى عن مجموعة من العناوين المتعلقة بالقرآن الكريم، وهي برأيي لم تكشف من خصائص القرآن سوى نقطة من بحر واسع، لأن باطن القرآن أعمق مما يتصور الناس بأجمعهم، وهذا ما بيّنه القرآن نفسه وما أشار إليه النبي وآله(ص) في أكثر من موضع ومناسبة، وأود هنا قبل أن أبدأ بالبحث المقرر أن أذكر بعض الأحاديث حول القرآن الكريم.

قال رسول الله (ص): "القرآن هدى من الضلال وتبيان من العمى واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياء من الأحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة وفيه كمال دينكم:

وقال (ص): من أعطاه الله القرآن فرأى أن رجلاً أعطي أفضل مما أعطي فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً:

وقال (ص): "فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه.

وقال (ص): "لا يعذب الله قلباً وعى القرآن."[4]

وقال (ص): "من كان القرآن حديثه والمسجد بيته بنى الله له بيتا في الجنة.

وعن معاذ بن جبل قال: "كنا مع رسول الله (ص) في سفر فقلت: يا رسول الله حدثنا بما لنا فيه نفع، فقال (ص): إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن، فانه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان."

وقال علي (ع): "إن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل القرآن، فإنه حبل الله المتين وسببه الأمين، وفيه ربيع القلوب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره.

وعن علي بن الحسين (عليه السلام): "آيات القرآن خزائن، فكلما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها."

وفي الحديث أيضاً "إن القرآن زاجر وآمر يأمر بالجنة ويزجر عن النار. وفي حديث آخر: "القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده."

وقال أمير المؤمنين(ع): ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لاَ تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجاً لاَ يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْراً لاَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجاً لاَ يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعاً لاَ يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَاناً لاَ يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَتِبْيَاناً لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لاَ تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزّاً لاَ تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقّاً لاَ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ. فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِيُّ الْإِسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ. وَبَحْرٌ لاَ يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لاَ يُنضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلُ لاَ يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلُ لاَ يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلاَمٌ لاَ يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ لاَ يَجُوزُ عنْهَا الْقَاصِدُونَ. جَعَلَهُ اللهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ:
وفي هذا البحث يوجد عنوانان رئيسيان سوف أتناول الكلام حولهما:
العنوان الأول: الآيات الحروف:
وهي تدخل في إطار الإعجاز القرآني الذي كان له دور بارز في إثبات الحق.
هذه الآيات افتُتحت بها أكثر من خمس وعشرين سورة:
ففي أول سورة البقرة قال تعالى(ألم) وفي سورة آل عمران(ألم) أيضاً وهكذا في سورة مريم(كهيعص) وكذا باقي السور المبدوءة بمثل هذه الآيات الغريبة.
إن للمفسرين أكثر من رأي مختلف حول هذه الآيات، فمنهم من قال بأنها أسماء للسور، ولا ندري ما هو منشأ هذا الرأي فإذا كان قولهم صائباً فينبغي عليهم إبراز الدليل الذي خصص سبعة وعشرين سورة بتلك الأسماء دون باقي السور، ثم إنني أنا شخصياً وبحسب معرفتي المتواضعة لا أقبل بهذا الرأي لأنها إن كانت بحسب زعمهم أسماءاً للسور فهل هناك إسم واحد لأكثر من سورة؟ فإذا كان كما يقولون فإن سورة البقرة مبدوءة بألم، وكذا سورة آل عمران، ونحن نعتقد بأن للسورة الواحدة إسماً أو أكثر من إسم كسورة الواحدة التي لها أكثر من إسم، ولا نعتقد بأن للسور العديدة إسماً واحداً.

ومنهم من قال إن هذه الآيات أسماء لله تعالى، ونحن نعرف بأن أسماء الله عز وجل معلومة ومعروفة ومذكورة كلها في القرآن بشكل واضح وصريح وهي تسعة وتسعون إسماً، فكيف يكون ألم أو كهيعص إسماً لله أو جزءاً من إسمه الأعظم كما يقولون، فلو كان ذلك صحيحاً لدل عليه الدليل، ومع فقدان الدليل لا يمكن الإعتماد على هذا الرأي.
ومنهم من ردّ الأمر إلى الله ورسوله فقال بأن هذه الآيات لا يعلم معناها إلا الله تعالى وقد كان لها دور أساسي في إنصات الناس لاستماع كلام الله تعالى حيث تآمر الوثنيون على النبي(ص) عندما كان يجلس في سوق عكاظ ويتلو كلام الله فتجتمع الناس حوله، وهناك مجموعة كبيرة آمنت بالله تعالى بمجرد سماع هذا الكلام المميز، ويذكر المؤرخون بأن المتبضعين وبعض التجار في سوق عكاظ كانوا يجلسون حول رسول الله ويمتعون آذانهم بما يسمعونه من كلام لا مثيل له في الوجود، فقرر قادة الوثنيين أن يفرقوا الناس عن رسول الله بإحداث ضجة حوله فأرسلوا إليه مجموعة للقيام بتلك المهمة وهناك نزلت بعض آيات الحروف فنصت حتى الذين أُمروا بإحداث الضجة حوله.
ومنهم من قال بأن المراد من هذه الآيات هو بيان عجز المعاندين الذين عجزوا عن الإتيان بمثل سورة من سور القرآن مع أنه كلام عربي يتألف من الحروف التي يركّبون منها كلامهم كالألف واللام والميم والكاف والهاء والياء والعين والصاد.
العنوان الثاني في هذا البحث: هو النزول والتنزيل:
نلاحظ بأن القرآن الكريم لدى إخباره لنا عن نزوله استعمل لذلك لفظين يشتركان في بيان النزول ويفترقان في الكيفية، فمرة استعمل لفظ الإنزال الدال على النزول الدفعي، أي أنه نزل دفعة واحدة، ومرة أخرى استعمل لفظ التنزيل الدال على النزول التدريجي.
مثال الأول قوله تعالى في سورة الأنعام قال سبحانه(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) وفي سورة يوسف(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) وفي سورة إبراهيم(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

وفي سورة الإسراء﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ وفي سورة القدر﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾
ومثال الثاني قوله تعالى في سورة الإسراء﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ وفي سورة الشعراء﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾
إذًا هناك استعمالان مختلفان في المعنى، ولا يوجد في القرآن الكريم أي نوع من أنواع التناقض، فلا بد إذًا أن يكون هناك سرٌ في الأمر فما هو ذلك السر؟ وهل نزل القرآن الكريم دفعة واحدة أم أنه نزل تِبَعًا الحوادث والوقائع؟
إن جميع علمائنا يوقنون بمسألة النزول الدفعي وكذا التدريجي، وقد اختلفت آراؤهم حول كيفية النزول بكلا نوعيه، ولن أتعرض إلى موارد اختلافاتهم في الأمر، ولكنني سوف أعمل على توضيح الأمر بالشكل المطلوب والمقبول كيلا يبقى كثير من إخواننا وأخواتنا في حيرة من هذا الأمر الذي يتعلق بأهم معجزات الوجود.
لقد انقسمت الآيات التي تلوناها قبل قليل إلى قسمين: قسم يصرح بالنزول الدفعي، وقسم يصرح بالنزول التدريجي مبينًا لنا الهدف من التدريج وهو سهولة حفظه وعدم قدرة الناس على استيعاب معانيه لو أنه نزل عليهم دفعة واحدة.
لقد نزل القرآن الكريم على قلب رسول الله محمد﴿ص﴾ دفعة واحدة إما بألفاظه ومعانيه وإما بمعانيه وروحه، وقد رُكّبت الألفاظ بعد ذلك عن طريق الوحي، والله تعالى أعلم، ولعل قوله تعالى﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ فيه إشارة إلى هذا المعنى لأن الأمر بالإنذار أتى بعد نزول روح القرآن على قلبه﴿ص﴾.

ثم إن هناك آية تصرّح بوجود القرآن إما بلفظه ومعناه أو بمعناه فقط في قلب الرسول(ص) وهي قوله تعالى(وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) ولذا كان الوحي يأمره بإظهار شيء من القرآن كما تقتضي الحاجة، وبهذا نفهم معنى الآيات التي استعملت لفظ الإنزال ومعنى الآيات التي استعملت لفظ التنزيل، فلقد نزل دفعة واحدة على الرسول، وأظهره الرسول للناس على دفعات حتى يتمكنوا من فهم معانيه ويطبقوا تعاليمه وإرشاداته.

وهنا نقطة هامة جداً لا بد من الكلام عنها لأنها تتعلق بصلب هذا الموضوع العقائدي الحساس وهي وقت نزول القرآن الكريم وهذا ما يحتاج منا إلى شيء من التفصيل.

بعضهم قال: نزل جميع القرآن في ليلة القدر لقوله تعالى(إنا أنزلناه في ليلة القدر) والبعض الآخر قالوا: لقد بدأ نزوله في ليلة القدر: ولكن ماذا نفعل بيوم المبعث الذي بدأ فيه نزول القرآن عندما نقل جبرائيل إلى النبي قوله تعالى(إقرأ باسم ربك الذي خلق) ولعلها أول الآيات التي نزلت، وبهذا لا يبقى لقول من قال إنه بدأ نزوله في ليلة القدر أي معنى، ثم إن القائل بأن القرآن نزل دفعة واحدة على قلب النبي ليلة المبعث مخالف لقوله تعالى(إنا أنزلناه في ليلة القدر) ولقوله في سورة الدخان(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) وهي لا شك ليلة القدر.

أنا شخصياً لي رأي خاص في هذا الموضوع ولا أدري إن كان مقبولاً لدى البعض أولا، وهو أن القرآن جُبل بروح النبي(ص) يوم ولادته، ولهذا كانت جميع تصرفاته وكلماته وكل حركاته وسكناته موافقة لآداب القرآن وتعاليمه قبل المبعث الشريف بعشرات السنين، ولا أقول يوم ولادته لأن ولادته لم تحصل في ليلة القدر، ربما يكون قد نزل على قلبه

وهو في مقتبل العمر وقد صادف هذا النزول ليلة القدر التي كانت خفية على الناس قبل حديث القرآن عنها.
ثم إن الذي كان يدفع بالنبي إلى المكوث في غار حراء لسنوات طويلة إنما هو روح القرآن الموجود بداخله، فلقد كان يذهب إلى ذلك المكان وهو ينتظر حدوث أمر ما، وقد حدث هذا الأمر عندما هبط عليه جبرائيل الأمين في تلك المرحلة.
ثم إن ملامح النبي في صباه وشبابه كانت تشير إلى سر كبير وراءه، وكثير من الرهبان عرفوه في صغره لمجرد أن رأوه كالراهب بحيرا الذي أخبر أبا طالب بسر يتعلق بابن أخيه وذلك عندما نظر الراهب إلى وجه محمد فرأى فيه معنى القرآن الكريم وملامح النبوة.